الألسُنيّات لإحياء الكفاءة في فهم الإسلام والحياة
كيف يرتقي المسلمون من طَور الجمود إلى طَور الحركة

محمد الحمّار(*)

مدرّس اللغة والآداب الفرنسية والإنكليزية ـ تونس.

ـ ١ ـ

من «الجُمود» إلى «الحركة»، ومن أجل إعلان أن «باب الاجتهاد غير مغلق»، وابتغاء لـ «نظام عالمي عادل». ذلك ما أكّده علماء الإسلام المجتمعون في صائفة ٢٠٠٩، في جامعة كشمير الهنديّة، مُنوّهين بمَوقف كل من الإمام الغزالي و«شاعر الشرق» محمّد إقبال من «عقيدة الحركة»، مؤكدين أنّ «الحياة لا تتحمّل أن تكون جامدة، وأنّ الحركة إنما هي طبيعية»[١]. الكلمة كلمةُ حقّ، ولكن هل هي كافية لتروي عطش مليارٍ ونصف من صائمي الحضارة، ولِتُغنيهم من جوع؟

ما من شك في أنّ «عقيدة الحركة» وسيلة فعّالة لاستنهاض هِمم الأمّة، وحَثّها على النهوض بنفسها، إلاّ أنّ هنالك إشكالية منهجية يُحدِثها مثل ذلك القول الذي حظي بإجماع مؤتمرِي جامعة كشمير. إنّ مثل ذلك القول يبقى ناجماً عن عقلية «علم الكلام» والتفسير التقليدي لـ **القرآن الكريم**. ولئن وضع العلماء المُجتمعون في جامعة كشمير، مَشكورين، الإصبع على واحد من أبرز الروافد اللازمة لارتقاء المسلمين، فالخشية من تواصل «الجمود»، الذي أعربوا عن استنفراهم إزاءهُ، ما تزال واردة، وذلك لسبب بسيط: «ليس الإيمان بالتمنّي بل ما وقر في القلب وصدّقه العمل» كما يقول الأثر[٢]. فمَن الذي سيعمل بمبدأ «الحركة» إن كان العلم لم يتمّ إدراجُه، بعد، في صدارة ترتيب أدوات الاجتهاد؟ وهل يتمتّع بعدُ المُجتهد الذي

(*) البريد الإلكتروني: mohamed.hammar@hotmail.com.

(١) «العلماء يقولون إنّ باب الاجتهاد غير مغلق»، ترجمة محمد الحمّار، **كشمير أوبزارفر**، ٢٠/٧/٢٠٠٩، <http://www.kashmirobserver.net/index.php?id=2316:scholars-say-door-of-ijtihad-not-closed&option=com_content&catid=2:local-news&Itemid=3>.

(٢) يقول الشيخ عطية صقر إنّ الحديث المذكور أثر عن الحسن البصري. انظر موقع «كلمات»: <http://www.kl28.com/fat1r.php?search=3727>.

سيضع مفهوم «الحركة» نُصب عينيه بمناخ فكري يولي عناية مركزية للكفاءة في فهم **القرآن الكريم** خصوصاً، وفي فهم الإسلام عموماً؟ ناهيك أنّ مقولة «فهم مُعاصر للإسلام» أضحت واحدة من الشمّاعات التي يبرّر بها العقل العربي والإسلامي فشلَه، ويتمادى بواسطتها في الاستبداد الفكري، وذلك بمُحاولاته اليائسة لِكي يُسقطَ، على عَقلِ الأُمّة قاطبة، «فَهماً» ورُبّما «إفْهاماً»، لا يزيدان وُجودَ الأمّة سوى تعقيد تِلْوَ التعقيد؟

إنّ «الحركة» عِلمٌ، ولن يَسمح بالخوض فيها وفي أسبابها وظواهرها وفوائدها وطُرق تناوُلها إلّا العلم. فهل سنبقى قابعين في سدّة «علم الكلام»، أو سنعمل بـ «كلام العلم»[٣]؟ ولأننا نعتقد أنّ **القرآن الكريم** قد انتهى تفسيرُه بتلك الطرق القديمة، فإننا نقترح استخراج معانٍ خَفيّة من بين معانيه، التي لا تنفد، بطريقة العلم وبالاستئناس بالتفاسير المُتداوَلة. وفي هذا السياق، نَميل إلى الاعتماد على اثنين من العلوم، لِما بينهما من شراكة في تبيان أهمية «الحركة» في الحياة المعاصرة، وكذلك لِما يشتمل عليه كلاهُما من أدوات ذات صلاحية لاستيعابِ معاني **القرآن الكريم** في هذا الزمان، وفي كل مكان؛ والعِلمان الاثنان هما **أوّلاً** نظرية «الفوضى» (البنّاءة) لإيليا بريغوجين وأسلافِه وأتباعِه، و**ثانياً**، ومن باب أوْلى وأحرى، نظرية «النّحو التوليدي والتحويلي» في علم الألسنيات.

لكن توازياً مع النظَريَّتين العِلميتين، لا بُدّ لنا من أن نتدبّر **القرآن الكريم**، وكذلك الواقع المعيش، لكي نقدرَ على إماطة اللثام عمّا قد يُفيدنا من ظواهر وخصوصيات «الحركة». ونحن نفترض أن الإفادة لن تقع حقّاً في المرحلة الراهنة من النضال الفِكري للمسلمين، إذا لم تكُن نتائجُ أيّة دراسة من النوع الذي نَحن بصدد إنجازه، مُوظَّفة خير توظيف في أُنموذج ما أو مثالٍ ما، يتّسمُ بإدماج المعرفة من صنف «ما قبل العلم»: **القرآن الكريم**، مع المعرفة من صنف العلم: نظرية «الفوضى البنّاءة» ونظرية «التوليد والتحويل». فإلى أيّ واقع سنتحوّل؟

ـ ٢ ـ

من النظام تتولّد الفوضَى، ومن الفوضَى يتولّد النظام؛ ذلك ما أكدَته نظريات إيليا بريغوجين، استناداً إلى ثورة الديناميكا الحرارية في الفيزياء. وبناء عليه، أعتقد أنّ بالإمكان أن نُضفِي على هذا الكلام معنى ينفعُ المؤمنين، قارئي **القرآن الكريم**، ومُريدي تأصيل إيمانهم في واقع حياتهم. أعتقد إجمالاً أنّه بالإمكان أن نستخرج من **القرآن الكريم** (النظام) عناصر متفرقة لم يتمّ تسليط الضوء عليها بعدُ (فوضى بنّاءة)، ثمّ نُدمجها في كيان أو بناء أو هيكل أو بنيان أو تركيبة (نظام) يسمح بها العلمُ المستخدَم كوسيلة لهذا الغرض.

وإذا اعتبرنا أنّ «التوليد والتحويل» حركة في حدّ ذاته، يمكننا إلحاق هذا المبدأ «التشومسكيّ»[٤]، المستند إلى نظريات كبار الفطريين السابقين في الفلسفة والعلوم الدماغية،

(٣) العبارة لأبي يعرب المرزوقي أستاذ الفلسفة في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا.

(٤) نسبة إلى مكتشفه نعوم تشومسكي، عالم الألسنيات.

خاصة منهم رينيه ديكارت، وبرتراند راسل، فالألسنيات هي العلم الذي نقترحه وسيلة للغرض المذكور[٥]. يقول تشومسكي عن «الحركة»، سارِداً برتراند راسل: «من الدماغ الإنساني تتولّد قواعد النحو والممارسة اللغوية من دون تعلّم سابق»؛ ذلك ما يُصرّ عليه العلّامة وأنصاره من مدرسة الفطريين والولاديين[٦]. ويشتمل منظور تشومسكي الفلسفي واللغوي، على صفات عديدة تدْخُل في الحِسبان، لمّا يكون الإنسان بصدد ممارسة التكلّم. ومن هذه الصفات نذكر اثنَتين فحسب، بناءً على مركزِيتِهما في دراستنا هذه: **الأولى**، أنّ الممارسة الكلامية «عملية» ونسق وسيرورة ومسار، وليست تقليداً أو عادة أو اكتساباً. و**الثانية**، أنّ الوسيلة الطبيعية والفطرية التي يستخدمها الدماغ أثناء إجرائه لـ «عملية» التكلّم، هي الـ «استقراء» (بالإنكليزية «إِندَكْشِنْ» (Induction) على عكس «دِدَكْشِنْ» (Deduction) وهو الـ «استخراج»).

إن اللغة ممارسة. وإن هذه الممارسة هي التي تصنع النحو، وليس العكس، بحسب التقويم التشومسكيّ.

فحين يغُوص الباحث في الواقع المَعيش بالتوازي مع الواقع اللغوي من جهة، وفي **القرآن الكريم** بالتوازي مع نظام اللغة من الجهة الثانية، ابتغاءَ إبراز التشابه بين تركيبة (من تركيبات) الإسلام الخفية بين سطور كلام الله العظيم وتركيبة اللغة، وهو تشابه بيّنّا بعض أوجُهه في مقالات سابقة[٧]، سوف يميلُ إلى افتراض أنّ الشريعة السمحاء هي «نحوُ الإسلام»، ثمّ يلتزم بإثبات أنّها قد تكون هي الأخرى، مثل «النحو» في نظرية تشومسكي، حاملة لِصِفة «التوليد والتحويل». ويحفِزُه ذلك على محاولة بيانِ أنّ ـ زيادة على أنّ الخير والشرّ مُتأصّلان في نفس البشر (وهذا معروف لدى المُسلم) ـ الجزاء والعقاب قد يكونان هما الآخران مُسجّلين في جينات الإنسان، وأصلُهما ثابت في عقل الإنسان وفي نفسِه، تماماً مثلما ثبت تجذّرُ أصول قواعد اللغة فيه. وفي هاته الحالة، وباعتبار أنّ الشريعة الإسلامية هي الوَجه الظاهر للجزاء والعقاب، فالباحث مُطالَب بِبَيانِ ما إذا كان الأجدرُ بالمُسلم أن «يستقرئ» قوانينها من داخل عقله ونفسه، مثلما «يستقرئ» طالبُ اللغة قواعد النحو منهما، عوضاً عن الاكتفاء بـ «استخراجها» من كتاب الله العزيز، مُوصِداً السُّبل الطبيعية والخَلْقية المُؤدّية إلى أغوار العقل (بما فيه العقل المُتدَيّن) والنفس (بما فيها النفس المُتديّنة)، أعني أغوار ما أَلِفنا تسميَتَه المُمارسة الدينية.

---

(٥) وهذا هو ما أنجزناه إلى حدّ بعيد ونشرناه في مقالات متفرّقة، باللغتين العربية (المعذرة إن كان معظمها محرراً بلغة عربية وسطى بين الفصحى والعامية) والإنكليزية. توجد المقالات العربية (والوسطى) ضمن سلسلة مرقّمة تحت عنوان «الإسلام يتكلّم» نشرت على موقع: <http://mohamed-hammar.maktoobblog.com>.

أمّا المقالات بالإنكليزية فمنشورة على: <http://islaminfrajtihad.canalblog.com>, and <http://www.articlesbase.com>.

(٦) لمزيد التفاصيل، انظر: ريتشارد وال، «من يخاف من نعوم تشومسكي؟،» ١٧/٨/٢٠٠٤، <http://www.chomsky.info/onchomsky/20040817.htm>.

(٧) انظر الهامش الرقم (٥).

من خلال المشهد الأوّل للمُقارنة (بخصوص صفة «الحركة» في اللغة)، وعلى سبيل الحَوصلة لِما تقدّمنا به، نستنتج أنّ اللغة مُمارسة، ونُضيف أنّ هذه الممارسة هي التي تَصنع النحو وليس العكس، بحسب التقويم التشومسكيّ. وما دام الأمر كذلك، فإنّ التوجّه الذي يُميّز عملية التكلّم سوف يكون كالآتي: أصول قواعد اللغة ثابتة في الدماغ، ومنها تنطلق مُمارسة التكلّم، ومنها يتمّ تكوّن قواعد النحو بعملية الـ «استقراء»، مع العِلم أنّ المُمارس، في المُعادلة التشومسكيّة، يجب ألّا يَغُرّه وجود كُتب النحو في المكتبات، فذلك يجبُ ألّا يعني أنّ النحو المُبوّب بصفة أكاديمية مقدّمة لمُمارسة اللغات.

ـ ٣ ـ

أمّا المشهد التّالي للمُقارنة (وهو يخصّ التديّن)، فسيقدّم لنا الإيمان بمثابة الممارسة («ليس الإيمان بالتمنّي بل ما وقر في القلب وصدّقه العمل»)، وكَون أصول المَيل إلى الإيمان ثابتة في التكوين البيولوجي للإنسان[٨]، وكَون الشريعة الإسلامية تفوق وتتجاوز وتتعالى عن المُمارسة. ما يتبقّى عندئذٍ من المُعادلة هو: ما علاقة الممارسة الدينية بالشريعة؟ ألا يمكن أن تكون مُماثِلة لعلاقة الممارسة اللغوية بالنحو؟ وإن كان الأمر كذلك، ماذا يجب أن يتغيّر (يتولّد ويتحَوّل) في منظومة التدَيّن؟

ـ بادئ ذي بَدْء، ماذا يقول **القرآن الكريم** عن التوليد والتحويل في خَلق الحياة؟

التوليد والتحويل من سُنن الله في الخلق. فهو تعالى «الذي يُحيي ويُميت»، و﴿**يخرج الحيّ من المَيّت**﴾[٩] و﴿**مُخرجُ المَيّت من الحيّ**﴾[١٠]، وهو الذي ﴿**أحياكم ثم يُميتكُم ثم يُحييكُم**﴾[١١]، وهو سبحانه الذي ولّد الحياة من الماء: ﴿**وجَعَلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيّ**﴾[١٢]، وهو الذي يحوّل نهارنا إلى ليلنا دون أن يفاجئ سبحانه فطرتَنا بهذا التحويل: ﴿**يولجُ الليلَ في النهارِ ويولج النهار في الليلِ**﴾[١٣]، وهو الذي سخّر لنا تحويل المادّة إلى طاقة: ﴿**الذي جَعل لكُم من الشجَرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتُم منه تُوقِدُون**﴾[١٤]...

ـ وماذا يقول **القرآن الكريم** عن التوليد والتحويل بإزاء الإيمان؟

---

(٨) في العلم: بدأ بإثبات ذلك رائد السوسيوبيولوجيا، الأمريكي إدوارد أوزبورن ويلسن في كتابه **الطبيعة الإنسانية** (١٩٧٩). وتُرجم إلى الفرنسية تحت عنوان: *L'Humaine nature: Essai de sociobiologie*, traduit de l'américain par Roland Bauchot; préface d'Alexandre Dorozynski, le monde ouvert (Paris: Stock, 1986).

في الدين: سبق أن بيّنا ذلك من خلال آيات الفطرة في القرآن الكريم، وكذلك حديث المولود للرسول (ﷺ) (في مقالات سابقة على مدوّنتَينا).

(٩) **القرآن الكريم**، «سورة الروم،» الآية ١٩.

(١٠) المصدر نفسه، «سورة الأنعام،» الآية ٩٥.

(١١) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٨.

(١٢) المصدر نفسه، «سورة الأنبياء،» الآية ٣٠.

(١٣) المصدر نفسه، «سورة لقمان،» الآية ٢٩.

(١٤) المصدر نفسه، «سورة يس،» الآية ٨٠.

فلا عَجب إذَن إن اعتبرنا التوليد والتحويل من سُنن الله أيضاً، في تعويد المسلم على التعامل السليم مع قوانين الشريعة السمحاء، وذلك من خلال الممارسة اليومية لمناسِك الدين الحنيف، والعملِ من أجلِ تثبيت الإيمان. والله عزّ وعلا، وعَدَ خَلْقَه بأن يساعدهم على اكتشاف السنن والسبُل الدالة إلى أنّه حقّ: ﴿**سنُريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفُسهم**﴾[١٥]. وهو الذي يحثُّ الإنسان عُموماً على إعمال العقل، ويدلّه على مَكمَنِ «التفكّر»، ألا وَهوَ داخل النفس: ﴿**أوَلَمْ يَتفكَّرُوا في أنفُسِهِم ما خَلَقَ اللهُ السّماواتِ والأرضَ إلَّا بالحَقِّ**﴾[١٦]. كما إنّ سبحانه هو الذي يبدّل السماء من لَون إلى لَون، والتوقيتَ من الليل إلى النهار، لِيجعَله مُلائماً للإنسان المسلم في حياته ونُسُكه، مثل فريضة الصيام وما تَبِعها من سحور وغيره: ﴿**وكُلوا واشربوا حتى يَتبَيّنَ لكُم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفَجر**﴾[١٧]. كما يُطَمئِننا سبحانه بتأكيده إلى تداول الفرح والترح وتداول الخلاص والعراقيل بحُكمه جلّ جلالُه: ﴿**فإنّ مع العُسر يُسراً**﴾[١٨]، وكذلك بوَعده أن ﴿**سيَجعلُ اللهُ بعدَ عُسرٍ يُسراً**﴾[١٩]. وحتّى الصلاة، فبالإضافة إلى كَوْنِ الخالق يُقدّمها دَوماً في صدارة المناسك (عِمادُ الدّين)، فهوَ يُوَفّر لنا فُرصة رُؤيتها، هي وما يُرافقها من واجبِ فِعل الخَير، في صدارة تمشٍّ مُنقذ من الضلال، له صفات «التحرّك» المُمَيِّزة لكلّ سيرورة أو مَسار. وهذا التمشّي الإلهي نَلمسُه من كلام لُقمان إلى ابنه، إذْ جاء في مُحكَم التنزيل: ﴿**يا بُنيّ أقِم الصلاة وأمُر بالمعروف وانْهَ عن المُنكر واصْبِر على ما أَصابَك إنّ ذلك من عَزم الأُمور**﴾[٢٠].

ـ وما قولُ الحياة في التوليد والتحويل من منظور التجربة الوجودية لِخَلق الله؟

ماذا عن الممارسة اليومية لمبدأ التوليد والتحويل، حتى في صورة افتراض عدم توفّر كتابٍ عظيم اسمُه **القرآن الكريم** لدى الإنسان؟ ألَمْ يتعامل المرء، دون اعتبار «الشرعة والمنهاج» (وَردت الكلِمتان في سورة المائدة، الآية ٤٨) التي سينزلها له الله، بمبدأ التوليد والتحويل بصفة فطرية وولادية؟

فلمّا يتوجه رجلٌ مهَدَّد، مثلاً، في مُمتلكاته، إلى رجل يُهدّده بسرقتها منه، قائلاً له : «إن تأخذ كذا منّي، فسوف أقطع يدك»، لا يقولها فقط مَن تَربَّى على حدّ قطع يد السارق في الإسلام، وما جاء معه من حُدود أخرى في الشريعة الإسلامية السمحاء، بل يقولها أيضاً كلّ من ينفعل بالفطرة ضدّ عمل الشرّ، فيسنّها كأقصى عقوبة لفائدته، ولِرَدع أو عقابٍ من هَدّده أو من اعتدى عليه. يقولها زوجٌ غاضب تشنّجت أعصابُه على إثرِ سلوكِ امرئ يُعاكسُ زوجتَه ويُراودها عن نفسها أو رُبّما زنى معها، فيقرّرُ قائلاً: «بسبب فظاعة صنيعك، سأُرسلُ إليكَ من

(١٥) المصدر نفسه، «سورة فصّلت» الآية ٥٣.
(١٦) المصدر نفسه، «سورة الروم» الآية ٨.
(١٧) المصدر نفسه، «سورة البقرة» الآية ١٨٧.
(١٨) المصدر نفسه، «سورة الشرح» الآية ٥.
(١٩) المصدر نفسه، «سورة الطلاق» الآية ٧.
(٢٠) المصدر نفسه، «سورة لقمان» الآية ١٧.

سيُؤدّبك، فينهالُ عليك ضرْباً حتّى الموت إن لزم الأمر»، لا يتفوّه بمثل ذلك الكلام فقط من تربّى على معرفة أنّ عقاب الزاني في **القرآن الكريم** هو الجَلْد، بل يتفوّه به القاصي والدّاني من خلق الله، ممّن غلَبَهم الغيظ فانساقوا إلى أساليب، عنيفة لا محالة، ولكنّها طبيعية وفطرية.

أعتقد أنّ من الطبيعي أن تسمع كلاماً مثل كلام الرجُلَين على لسان الهنديّ والصينيّ والهندوسيّ والكنفوشيوسي والزرادشتي وغيرهم. من المُتأكّد أنّ وصايا الثأر والانتقام وغيرها، مثل تلك الصادرة عن الرجُلَين، على غرار وصايا فِعل الخير والصدقة ومساعدة ضِعاف الحال، والحِفاظ على علاقات صلة الرحم والقرابة وعلاقات حُسن الجِوار وغيرها، كان مَعمولاً بها في الشرائع البشرية القديمة، قبل مجيء التوراة ثم الإنجيل ثم آخر الكتُب، **القرآن العظيم**، ما يُبَرهنُ على أنّ الإنسان مجبولٌ على سِماتِ التنكيل بنظيره الإنسان لَو مسّ عرضَه أو شرفَه بسُوء، مثلما هو مجبُولُ، في المُقابل، على سِمات نُكران الذات والتواضع والاعتراف بالجميل.

إن الحرص على توخّي العلمانية من طرف كثير من مثقفينا، صار حرصاً على اعتناقها، وكأنها تعويض للدين. وهذا مردّه حالة مَرَضِيّة من النوع الفصامي.

ـ وماذا يقول **القرآن الكريم** في التوليد والتحويل من خلال التجربة الوجودية للإنسان، مخلوق الله؟

أعتقد أنّ الإنسان لَو جرّد نفسه تماماً، من باب التجربة المخبَريّة، من ثقافة الدين ومن «الشرعة والمنهاج» الذي سيخصّه به الله (لِيُنجيه لا محالة من الاعتباط وإهدار وقته في التخمين والتدبّر في ما ليس فيه تدبّر)، ثم إذا حاول الإنسان رَصْد ومُساءلَة نَواميس وسُنن الفطرة التي هو مجبولٌ عليها، في المستوى الأزلي، من طرف خالق دار: ﴿**إنّا خلَقنا الإنسانَ من نُطفة أمشاجٍ نَبتليه فجَعَلناهُ سميعاً بَصيراً. إنّا هَدَيناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كَفوراً**﴾ (٢١)، فسوف يتوصّل إلى نتيجة باهرة؛ سوف يكتشف أنّ علاقته بمثيله الإنسان وبالطبيعة وبالبيئة، وما في هذه العلاقة من تواصل أصليّ مع الخالق، فاطرِ السماوات والأرض وما بينهما، إنما هي علاقة محكومة، بدرجات متفاوتة لا محالة، بمبدأ التوليد والتحويل. وقد تكون استحالة تقريب الدرجات، هي التي تُمثّل سنَداً قويّاً لفائدة تنزيل الشرائع السماوية عموماً، والشريعة الإسلامية على وَجه الخُصوص، ولكنّ هذا الأمر لا هُو من مشمولاتنا ولا هُو من أغراض هذه الدراسة...

فالإنسان، بصَرْف النظر عن كونه مُسلِماً، في داخله الخيرُ وكذلك الشرُّ: ﴿**ونفسٍ وما سَوّاها. فألهَمَها فُجورَها وتَقواها**﴾ (٢٢)، كذلك يُرينا سبحانه الشاكلة التي خلقَ عليها

(٢١) المصدر نفسه، «سورة الإنسان،» الآيتان ٢ ـ ٣.
(٢٢) المصدر نفسه، «سورة الشمس،» الآيتان ٧ ـ ٨.

الإنسان، حينئذٍ ما على الإنسان إلّا أن يختار: «إمّا شاكِراً وإمّا كَفُوراً»، وهو اختيار من الداخل، من داخل الـهَدي الذي في دماغه وعقله ونفسه: ﴿**وهدَيناه النجدَينِ**﴾[٢٣]. والاختيار من الداخل هو التوليدُ والتحويلُ، وما سيختارُ الإنسانُ هكذا توليدَهُ هو من هُدى الله؛ إمّا قوانينُ الفطرة الطيّبة: «شاكراً»، وهو ما يَرتضيه له الله؛ وإمّا قوانين الفطرة الرديئة: «كَفُوراً»، وهو ما يَحُثّه الله على اجتِنابهِ. كما إنّ صفة التوليد والتحويل وردت في تفسير ابن كثير للآية الكريمة ﴿**سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد**﴾[٢٤]، حيث يقول: «أيْ سنُظهرُ لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كَون القرآن حقّاً منَزّلاً من عند الله، على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدلائل **خارجيّة** من الفُتوحات... ويُحتملُ أن يكون المُراد (من «وفي أنفُسِهِم») **ما الإنسان مُرَكّبٌ منه**، من المواد والأخلاط والهَيئات العجيبة...»[٢٥].

ـ ٤ ـ

ولكَي نُنَزّل حديثنا إلى واقع العالم اليوم وعمل الإنسان فيه، دَعْنا نرَ كيف أنّ طريقة التوليد والتحويل لتلك القرارات، بوَصفِها قائمة على قوانينَ مجبولٌ عليها الإنسانُ، إنّما هي نُسخة طبق الأصل لِما أنجزته العلمانية، على أرض الواقع وعلى الميدان، في التاريخ المُعاصر للمسيحيين (واليهود تباعاً). فالإنسان الذي افترضناه جدَلاً مُجرّداً من الشرائع وُجدَ فعلاً، بل قَلْ هو ما زال موجوداً، وهو المُواطن المسيحي (واليهودي، وربُّما أيضاً الياباني والكوري والصيني...)، الذي عُرف، وما زال يُعرَف، بحُسن توظيفه للائيكية/العلمانية. يُمكن أن نُعرّفه الآن، في ضوء تعريفنا للتوليد والتحويل، بأنّه مواطنٌ نَزَع عن طواعِية كِساء الدين والتديّن (كلّ دين) في ممارسته للحياة وللشأن الاجتماعي العام، أو بذَلَ قُصارى جُهده ليفعل ذلك، ما جعله يفترض نفسه إمّا غيرَ مُسَيّرٍ بالمَرّة من لدُن قوّة خارقة (الماأدريّون والمُلحِدون النُّفاتيّون)، وإمّا مُسَيَّراً بصفة جُزئية، أي مُحافظاً على عذارة خلدِه من الركون إلى التسيير الإلهي في شؤون السياسة وتسيير الحياة العمومية ودواليب الدولة. فما حَصل بخُصوص نمَط «التَّعَلْمن» المسيحي اليهودي، كنتيجة لذلك، أنّ العلماني نجَح إلى حدّ بعيد في صيانة قوانين الفطرة الطيبة بالرغم من إذعانِه، بالتحديد الإلهي، لمشيئة خالق دارٍ بأسرار هذا الكون. وما حصَل أيضاً، أنّه لقِي نفسه مجبُولاً على توليد وتحويل قرارات اللَّوم أو الاشمئزاز أو الزجر أو العقاب أو الثأر من داخل تركيبته العقلية والنفسية، وكذلك على توليد وتحويل قرارات المكافأة مثل الشكر أو الاعتراف بالجميل، انطلاقاً من وضعية مُعيّنة، سيّئة مثل التعرّض للخيانة أو السرقة أو الإهانة أو الاضطهاد، أو طَيبة مثل إسعاف المريض أو نجدة الغريق أو إطعام المسكين. ومن

(٢٣) المصدر نفسه، «سورة البلد،» الآية ١٠

(٢٤) المصدر نفسه، «سورة فصّلت،» الآية ٥٣

(٢٥) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **مختصر تفسير ابن كثير**، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، ٣ ج (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١)، ج ٣، ص ٢٦٨، وتغليظ الكلمات بالأسود من اختيار كاتب هذا المقال.

ثمّة قام هذا الإنسانُ، الذي اختار التجرُّد من الشرائع السماوية (في الإيمان وفي السياسة فقط، أو في السياسة فحَسب)، أن يُترجِم ما أسفر عنه استخدامُه لأداة التوليد والتحويل من مشاعرَ وعواطفَ وأفكارٍ وآراءٍ ومواقفَ وقراراتٍ، على قانون سُمّي بـ «القانون الوضعي»، وعلى مواثيق جدّ هامة وجدّ متطوّرة، تخصّ الحريات الأساسية وحقوق الإنسان والحقوق المدنية وحقوق المرأة وغيرها.

هكذا، نُدرك أنّ أولئك العلمانيين الأصليّين فرّقوا بين دينهم (المسيحية وتباعاً اليهودية وغيرها ما عدا الإسلام)، والدولة والحياة، قبلَ أن يَنكبّوا على التفاعل الفطري والولادي مع الحياة ومع إدارة الشأن العام بالسياسة. وقد يَفهم مُعظم المسلمين أنّ ذلك أمر جميل، وأنّ هؤلاء قد أنجزوا ذلك بالاحتكام إلى وسائل العلم؛ وأنّ هذا إنجاز أجمل. وقد يستنتج كثير من المسلمين، ممّن يبغون الاقتداء بهم، أنّ من أعظم إنجازات هؤلاء أنّهم قد قرأوا الواقع بالعِلم عوضاً عن الدين، وأنّه ثبت لديهم أنّ العلم وحده يوصل أتباعه إلى أعلى مراتب الرّقيّ والحضارة. ولكن، باعتقادنا، على المُسلمين أن يُدركوا أنّ هذا الأمر الأخير من أخطر التهديدات على المسيرة الفكرية والوجودية لديهم، إذ إنّه جدُّ مَشكوكٍ فيه تاريخيّاً وسيكولوجيّاً بالخصوص، كما سنرى إجمالاً.

«هيهات»، نَسوقها إلى كل واحد منّا انبهر بما وصل إليه الغرب بلائيكيته (علمانيته) من تقدّم ورُقيّ. فَهُمْ ليسوا نحنُ، ونحنُ لا يمكن أن نكون مثلهم. لا يُمكنُنا استنساخ هذا التمَشّي اللائيكي/العلماني من عند المسيحيين ومن تبِع تمَشّيهم. لماذا؟ لأنّ أنموذجهم غير قابل للاستنساخ **من ناحية**، فالاستنساخ له قواعد، ومن قواعده التوليد والتحويل انطلاقاً من الخلايا الأُم. فهل تَربتُهم الثقافية والعقدية والتربوية هي تُربتُنا حتى نتفاءل بنجاح استنساخ أنموذج للحياة من لدُنهم؟ و**من ناحية ثانية**، لأنّ الفرق بينهم وبيننا في التعامل مع نواميس الفطرة والولادة مثل نواميس التوليد والتحويل هو الآتي: هُم تَحَتمَ عليهم التعامل معها بالعِلم مع التجرّد من الدين، بينما نحن محكومون بالتعامل معها بالعِلم، مثلهم، لكن، وهنا تتنزّل المُفارقة المنهجية الكبرى، مع استحالة التجرّد من الدين. فقد سبق أن رأينا في هذا المقام وفي غيره أنّ دين الإسلام، دون سواه من الأديان السماوية أو غير السماوية، هو دين الفطرة بامتياز. ولسائل أن يسأل: ما الذي أحدث هذا التباين الرهيب، أي كيف يكُون دينُنا دين فطرة ونحن لم نقدر على استجلاء واستبيان واستنباط، و(لكي نستعمل «الدّال» الألسني) لماذا لم نقدر على «استقراء» قوانين الفطرة بواسطته، أي لماذا لم نُطبّق الإسلام؟ أذلك مَردُّه إلى الإيمان بالعلمانية كحَل ليس مثله حلّ، لأنّها خيارٌ طبيعيّ ومتناسق مع النموّ الثقافي للبشر كافّة؛ مثلما هو سائد في أوساط علمانية عديدة من بين المسلمين؟ أمْ أنّ مردّه زوالُ الرغبة في الإسلام كدينٍ صالحٍ للتطوّر؛ مثلما هو سائد لدى البعض الآخر من العلمانيين من بني هذه الأمّة؟ أم أنّ الرغبةَ في تحيين الإسلام موجودة ولكن تصحبُها قُدرة عجيبة على الحِفاظ على الأوضاع الفكرية والتربوية والعقدية السائدة، مع العِلم أنّ التُّربة التي يترعرع فيها هذا النوع العجيب من القدرة السالبة، ما هي إلّا تكريرٌ لفقد الكفاءة في فهم الإسلام والحياة معاً؛ مثلما لا يعتقد أحد ولا يُريدُ أحدٌ أن يعتقد؟

قبل الإجابة المباشرة نقول إنّ ترْك الإسلام في ثقافتنا لا يُعَدّ حلاً جميلاً مثلما هو في ثقافة الآخرين. بل بالعكس، ترْكُ الإسلام لفائدة العلمانية هو إعلان بالفشل للمنظومة الفكرية والعلمية والثقافية عندنا بتمامها وكمالها. وكلامُنا هذا ليس دَحْضاً للعلمانية بأيّة صورة من الصور، بل بالعكس، إنّه اعترافٌ بأنّ العلمانية إنّما هي مهارة تُكتَسَب، مثل سائر المَهارات المُبَوّبة تعليمياً وتَربَوياً في خانة «الاكتساب». إنّه نِداء (مَوصولٌ بالعَضُد العِلمي) من أجل العمل على تحصيل المَهارة العِلمانية بواسطة الدخول من بوّابة دون سواها؛ الدخول من بوّابة التأصيل الفكري فالثقافي ثمّ يأتي دَور السياسي، عِوضاً عن التمادي في المُخاطرة بولوج بوّابة مُحكمة الغَلق، إن لَم نَقُل تَفتحُ على متاهات لن تسمحَ لِمَن جرّب وُلوجَها الخُروج منها ثمّ العودة إلى قواعده سالِماً ومُعافىً: بوّابة الاغتراب والاستِلاب بواسطة الاقتداء الحَرْفي بالغرب العِلماني. إنّ ما نرمي إليه هو بَيانٌ بأنّ الإسلام يَسمح، في مساحات لا تزال عَذراء في ما بين سطور القرآن والحديث، رغم إعلانٍ ضِمني بإتمام تفسيرها من طرف عُلماء الدين والمُفسّرين، بقراءة لِمسائل التقدّم، تكونُ أكثرَ تطوّراً وأكثرَ تلاؤماً مع واقع المسلمين وعقلياتِهم من ذلك الشكل من العلمانية الذي نشأ في بيئة غربية(٢٦). نقصُد أنّه قد آنَ الأَوان لأن ينكَبَّ المفكّر العربي والإسلامي على تحويل وجهة اهتمامه وانشغاله، بل قُل وهَوسه، من وجهة إلى وجهة أخرى أكثر تفتّحاً وأكثر واقعية.

ما الذي يمنعنا من إنجاز قراءة متطورة للإسلام، تكون، بتلاؤمها مع عقلياتنا، كفيلة بتوليد الآلاف من المعاني، التي تضاهي معنى العلمانية بالذات؟

فعِوضاً عن التّهافت على ضمّ العلمانية في شكلها الخارجي ضَمّاً (مثلما يفعل اللائيكيون/العلمانيون)، أو ما يُقابِلها من تهافتٍ معكوس (على إعادة إنتاج أنموذج شبيه بالأنموذج الإسلامي التاريخي، وذلك من طرف الإسلام السياسي)، وجبَ على المثقفين العرب والمسلمين أن يُصوّبوا مهاراتهم في الفهم والإدراك والتمعّن وإعمال العقل نحو الإشكالية الأُم: إنّ الحِرص على توخّي العلمانية من طرف كثير من مثقّفينا، صار حِرْصاً على اعتناقِها، وكأنّها تعويض للدّين. وهذا مردُّه حالة مَرَضية من النوع الفُصامي(٢٧)، كأنّي بها تجذبُ الشخصية العربية الإسلامية جذباً نحو حُلول الاستلاب، وتدفعها دفْعاً بعيداً عن أيّة مُحاولة للتطبيق العقلانيّ لِلإسلام، وذلك دون توفّر سبب منطقي مؤكّدٍ، ولا سبب حُقوقي مبيَّنٍ، ولا سبب عِلمي مُجَرَّبٍ؛ دون توفّر أسباب قوية المتن تخدم لفائدة التخلّي عن الإسلام. إذن، إذا توفّرت

---

(٢٦) يقول د. حسن حنفي: «النظام الإسلامي نظام مدني خالص، والدولة الإسلامية دولة علمانية». انظر: حسن حنفي، «الإسلام العلماني» <http://mm10002.maktoobblog.com/500771>.
انظر أيضاً: فيصل غازي، «لماذا العلمانية هامة للإسلام»، ٨/٨/٢٠٠٩، <http://www.averroespress.com/AverroesPress/Main/Entries/2009/8/8_Why_Secularism_is_Key_to_Islam.html>.

(٢٧) انظر: غريغوار منصور مرشو، **الفصام في الفكر العربي المعاصر** (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٧)، <http://www.fikr.com/?Prog=book&Page=bookinfo&id=19801>.

الإحاطة، هكذا، بلُبِّ الإشكالية، فلم يبْقَ إلّا أن يُحاول مُثقّفو العلمانية من المسلمين وكذلك نُظراؤهم من الإسلاميين، طرحَ تلك الإشكالية الأُم من المنظور الآتي: ما الذي يمنعُنا من إنجاز قراءة مُتطوّرة للإسلام تكون، بتلاؤُمها مع عقلياتنا، كفيلةً بتوليد العشرات، بل الآلاف من المعاني، التي تُضاهي معنى العلمانية بالذات؟ بكلام آخر، كيف نُفسّر عدم جاهزيّتنا لتطبيق الإسلام؟ أليس تطبيق الإسلام مطلباً مركزيّاً من مطالب الأمّة؟ ألن يكفّ بعضنا عن تخويف البعض الآخر بمثل هذا المطلب: بعضهم بالترهيب بواسطة التنكيل بفَرَضية تطبيقه (العلمانيون)، وبعضهم الآخر بتوخّي أساليب في الدعوة والتبليغ لم تعُد صالحة لِمَن يعيش بين المُسلمين، ناهيك بِمَن هو مؤمنٌ مُمارسٌ بَعْدُ، وما ينجرُّ عن هذا الأسلوب اللابيداغوجي من تحوّلٍ إلى دَعوة الدّاعية وتبليغِ المُبلِّغ، في عُيون المسلمين **أوّلاً**، ثم في عُيون غير المسلمين **ثانياً**، إلى إعلانِ تَهديد بتطبيق الإسلام (الإسلاميون)؟

لقد توفّر لدَينا **الشطر الأول** من الإجابة لمّا أكدنا أنفاً أنّ عملية الاجتهاد لم تتبنَّ بعدُ العِلم كأداة كاشِفة عن أغوار **القرآن الحكيم**، ما «ولّد» لدينا مرَضاً مُستحدَثاً، زيادة على تلك العِلّة الأصلية، وهو التدافع من أجل الاقتداء بالغربيين في الابتعاد عن الدين، وما يقابله من تدافع على التطبيق الفوري لأحكام الشريعة، من طرف من يرُدّون عن الاغتراب الخارجي بالاغتراب الداخليّ. هؤلاء يُخلطون بين دين لا يقول بأهمية العلم والفطرة (المسيحية)، ما جعل دُعاتَه وأَتباعَه أوّل مَن تجَنّبوه في شأن السياسة وإدارة الحياة العامّة، ودين العلم والفطرة (الإسلام)، الذي هُو بطَبعِه مَدعاة للإتباع والصّيانة والتّكرير، وأولئك يخلطون بين الدين والدولة بما لم يَسمح بِخَلْطِهِ الدينُ نفسُه[٢٨].

أمّا **الشطر الثاني** للإجابة عن سؤال «لماذا لم نُفلح في تطبيق الإسلام؟»، فهو الآتي: إذا كان المسلمون لا يتعاملون مع الشريعة السمحاء مثلما يتعامل طالب اللغات، أو المولود، مع اللغة، فكيف هُم يتعاملون معها في الوقت الراهن؟ إنّهم يتناولونها إلى يوم الناس هذا، وبسبب انغلاق المجتهدين على أنفسهم في باب علم الكلام (في الدين) وعلوم التفسير والاجتهاد التقليدية، مثلما لا يتناول متكَلّمٌ لغة يتكلّمُها؛ أو لِنَقُل إنّهم يتناولون الإسلام ككُلّ، مثلما كان متعلّمو اللغات في النصف الأول من القرن المنقضي يتناولون اللغة، أي قبل الثورة الألسنية التي أتى بها نعوم تشومسكي، بفضل نظرية النحو التوليدي والتحويلي: جملة من القوانين/الحُدود، المبوّبة داخل نظام النّحو/الشريعة، وجب على المستعمل أن يحفظها عن ظهر قَلب، بعْد «استخراجها» من كتاب النحو/كتاب الله العزيز، ويطبّقها في كلامه/في تديّنه. والحال أنّ مبدأ التوليد والتحويل يقتضي اعتبار اللغة، وبالتالي الدين أيضاً، في مقاربتنا التشبيهية، نظاماً، بالتأكيد، ولكنه نظام يمتاز بصفات «الفطرية» كما

---

(٢٨) لمزيد من الاطلاع على رأينا بإزاء هذه الإشكالية، انظر: محمد الحمّار، **الاجتهاد الثالث (الاندماجي): رحلة المسلم المريض من الإسلام إلى الإسلام** (تونس: المؤلف، ٢٠٠٩)، جزء «الإسلام والديمقراطية، نظرة الحاكم إلى المحكوم هي القضية»، ص ٩٤. <http://www.arabicebook.com/Items/item-display-preview.aspx?IID=2005>.

أسلفنا، ما يجعل المُتدَيّن مطالباً بـ «استقراء» ما يحملُه دماغه وعقلُه، وما نفسُه حُبلى به، من أصول القوانين المُسجّلة في جيناته، شريطة أن يكون بصدد ممارسته للدّين، أي من خلال تجربة التديّن بالذات وليس من خلال العبادة الدّغمائية؛ وتلك هي مواصفات «العملية» أو «السيرورة» أو «المسار» («بْرُوسَاسْ» (Process) بالإنكليزية) التي يعتبرُها تشومسكي ومدرستُه عموداً فقريّاً لجسم اللغة، بعد أن اعتمدوا مبدأ التوليد والتحويل كمُحَرّك، أو بالأحرى كمجموعة كبيرة وكثيفة من المُحرّكات، لذلك الجسم.

فالمقصود بـ «عملية» هو في الأصل «عمليّات»، وهو بالضبط عكس التقليد والإتباع والتلقين. فبخصوص «العملية» اللغوية، يقول ريتشارد وال إنّ «ما يقصده تشومسكي، هو أنّ السبب الرئيس في أن تكون مُهتمّاً بالدراسة العلمية للّغة، ومن باب أوْلى وأحرى بالنّحو التوليدي، هو أنّ لَديها مساهمة ستُضيفها إلى فَهمنا للعمليات العقلية»(٢٩). سواء في اللغة أو، كما يفرضه علينا غرَضُ المُقارنة، في الدّين، سواء في ما يخصّ «التكلّم» أو ما شابهه من «تديّن»، نعتبرُ أنّ تصنيف تشومسكي لـ «فهم العمليات العقلية» كغاية للممارسة اللغوية، فيه من الشمولية العلمية ما يُؤهّله لأن يكون مُدرَجاً كغاية لممارسة دين الإسلام. فالعقل البشريّ واحد، سواء أمارَسَ اللغة أم مارَسَ الدّين. إنّه اندماجيّ في كثير من وظائفه، ناهيكَ بأنّه قادرٌ على توحيد النحو بالذات(٣٠) ألَيس العقلُ القادرُ على توحيد النحو بقادرٍ على تَوحيدِ كلّ فحوى العقل، بِما فيها على الأقلّ المَيل إلى التديّن، أو الفطرة، أو ـ لِمَ لا ـ الدّين؟ ونكون حينئذٍ شاهدين على لحظةٍ رائعة، لحظة تلاقي حُكم العِلم (التوليد والتحويل هي من خصوصيات الدّين،على غرار اللغة) مع حُكم **القرآن العظيم**: **﴿إنّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ وَما اخْتَلَفَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ إلاّ من بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ﴾**(٣١)، **﴿لِيُظهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ﴾**(٣٢).

وإذا كان الأمر كذلك، فسَنزْدادُ يقيناً بأنّ ما يُفيدُ المسلمين في فهم عمليّات التكلّم، سيُفيدهم أيضاً في فهم عمليّات التديّن، وسيكون ذلك مَيسوراً طبعاً، شريطة أن يتّبعوا الرابط الرئيس، أعني استبيان قُدرات العقل البشري على التّأقلم مع قوانين سنَّها شارعٌ عظيم ذو الجلال والإكرام، ما لم نَفعَلْه إلى يوم الناس هذا. أمّا الذي سيترتّب عن التحوّل المنهجيّ في التديّن، فهو أن يكون المسلم قادراً على تطبيق الدين بواسطة منهجيات التعلّم العصرية، الرامية إلى استفزاز مهارات التفاعل لدى المُسلم «البَاث» لـ «المَدلول» الدّيني والمَعرفي، بالمدّ والجزر، مع قوانين الشريعة. وهذه السيرورة لا تحُثّ لا على التطبيق الآلي للشريعة السمحاء، ولا، في المُقابل، على تركِها جانِباً والخَوض في التجديد الهدّام. فقط هو مسارٌ يهدف إلى توفير الإمدادات الدماغية والشعورية لدى المسلم، لكي يكون قادراً، بنفسه، على إصابة مَرماه حين يُطلب منه

(٢٩) لمزيد من التفاصيل، انظر: وال، «من يخاف من نعوم تشومسكي؟».

(٣٠) يؤكد تشومسكي أنّ «النحو» واحد مهما تعددت اللغات ويُسمّيه «النَّحو الكَوني» (بالإنكليزية Universal Grammar).

(٣١) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٩.

(٣٢) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٣٣.

اختيار سلوكياته ومواقفه وتحرّكاته: ﴿**بَل الإنسانُ على نَفسِهِ بصيرَةٌ**﴾[٣٣]. بكلام آخر، هو مسار يهدف إلى إرساء الركائز العلمية، انطلاقاً من علوم التربية والعلوم الدماغية والعلوم السلوكية وغيرها لِفهمٍ أو لإفهامٍ، لتأويل أو لِتأويلاتٍ مُعاصرة للإسلام.

فإلى حدّ اليوم لم يَكفِنا عِلمُنا (الاجتهاد التقليدي)، سوى لإعادة «اكتساب» ما نَعلَمُه بفضل تواصُلنا مع أجداد أجدادنا، منذ تمّ تعلّمهم الفعلي للدين الحنيف مباشرة من سيّد المُعلّمين محمد (ﷺ)، وهو الذي كان «خُلُقُه القرآن»، أي استوعَب **القرآن الكريم** حتّى تماهت معه خُلُقه. وهل يتمّ استيعابٌ وتماهٍ دون «عملية»؟ وهل يجوز اليوم، تربويّاً وبيداغوجياً، أن يُرسي المسلم علاقة مع دينه، غير علاقة الاستطلاع والاستكشاف والتمحيص والنظر والـ «استقراء»؟ ألسنا نعرفُ ديننا كما لا يَعرفُ دينَه أحدُ، إلّا أنّنا نجْهل المسالك التي تقودنا إلى إعادة ربط الأواصر معه؟ رحِم الله مالك بن نبي، وهو الذي صدق قولُه: «فكلّ مُسلم مُقتنع بدِينه من يوم أن أُنزلت الآية الأولى في غار حراء، ومَن يحاول أن يأتي للمسلمين بوسائل لإقناعهم بدينهم، فإنما يُضيع وقتَه، وربما يضيعُ وقت المُسلمين أنفسهم»[٣٤].

إن ما سيترتّب عن التحوّل المنهجي في التدين، هو أن يكون المسلم قادراً على تطبيق الدين بواسطة منهجيات التعلّم العصرية، الرامية إلى استفزاز مهارات التفاعل لدى المسلم "الباث" لـ "المدلول" الديني والمعرفي، بالمد والجزر، مع قوانين الشريعة.

ـ ٥ ـ

هكذا نُدرك أن لا بُدّ للمسلمين من أن يكُفّوا عن تناول مسألة تطبيق الإسلام من الخَلف، وأن يعكفوا على مُجابهتها من الصّدر، لأنّ الخيار الأوّل لم يُولّد لديهم سوى الالتصاق إلى حدّ الهَوس بالنظام (الشريعة السمحاء)، فاقدين السيطرة في الأثناء على الآليات التي من شأنها أن تشحذَ مهاراتهم في حُسن التعامل مع هذا النظام، عبر عملية اسمها ممارسة الدين. وهنا يأتي الفرق بين الدين والتديّن، فمَعشرُ المُسلمين يعرفون دينهم أكثرَ وأفضلَ من معرِفتهم لأنفُسهم، أي أنّهم يجهلون آليات التديّن طِبقاً لِشروط العصر الراهن، لا يمتلكون جهازاً معاصراً للتديّن، يُبلور لهم معنى وأبعاد مقولة «الإسلام صالح لكل زمان ومكان». والتديّن هو فنّ العيش بإبداعٍ وابتكارٍ، وَلَو تحتّم أن يقع إنجاز ذلك في ظلّ نظام تسنّه قوانين.

وهنا تأتي الأهمية القُصوى للمُفكّر، فهو الذي من المفروض أن يجهّز لعموم المسلمين، مُمارسين للدين وغير مُمارسين، تصميماً لمنهج أو مناهج، تدرّبهم على استبطان آليات الفهم المتحرّر من قيود التقليد والحَرْفية. وتصميم المنهج ليس تأليفاً لفهم معيّن أو

(٣٣) المصدر نفسه، «سورة القيامة،» الآية ١٤.
(٣٤) **دور المسلم ورسالته**، سلسلة مشكلات الحضارة (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٩)، ص ٥١.

لتأويل معيّن للإسلام، عن طريق تطوير الفقه مباشرة أو بأية طريقة ظاهرية أخرى أدّت، في ما أدّت إليه، إلى التخبّط في اصطناع فتاوى أقرب إلى «السندويتش» منه إلى الإفتاء العلمي والمُنظَّم، وفي التقَوقُع داخل أشباه منظومات لإنتاج فِقهٍ أقرب إلى منتوجات المَداجن الكهربائية، أو الزراعات بالأسمدة الكيميائية، أو منتوجات البَاكُورات في البيوت المُكيَّفة، منه إلى القانون المُوَلّد من أرضية فكرية، اكتمل نمُوّها الطبيعيّ بواسطة أدوات طبيعية. فعملية تَصميم المنهج من طرف مُفكرين جُدد، إنّما هي شبيهَة بِعمل الفلاّح الذي يجب أن يُهَيِّئ التُّربة المزروعة، فيَقلبها حتى تُعطي أُكلَها بأن تُنبت زرْعاً، من نوع الـ «بيو» إن لزِم الأمر، مرغوباً فيه، وما أحوَجَ المُسلمين إليه: فِقهاً وأحكاماً شرعيةً مُجدَّدة؛ فَهماً أو إفهاماً مُعاصِراً؛ تأويلاً أو تأويلاتٍ جديدة؛ تكون كلّها نتيجةً لعملية تحويلية وتَوليدية، تعرِفُ انطلاقتها من داخل العقل العربي والإسلامي المتحرِّك، مَنتوجاً طبيعياً لفِكرٍ مُتجَذّرٍ في بيئته وفي عَصره وفي عالَمه وفي عالميّته[٣٥].

ولن يحظى مثل ذلك التدريب بالقابلية والقَبول من طرف «مُتعلّم» الدين، وهوَ «باث» وليس بـ «مُتقَبّل»، إلاّ في حال يتوفر في المنهج المُصمَّم أسلوبٌ يُرغّبه في إعادة رَبط الأواصر مع الدين، بتصويره إياه بطريقة مستَوحاة من الطريقة التي صوّره لنا بواسطتها الخالق البارئ: العبادة «عملية» فيها تداول بين «الكدح» و«السَّكينة». فالكدح ورَد في قوله تعالى ﴿**يا أيها الإنسانُ إنكَ كادحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فمُلاقيهِ**﴾[٣٦]. وقد جاء في تفسير للآية الكريمة: «أنت يا ابن آدم جاهد ومُجدّ بأعمالك التي عاقِبَتها الموت، والزمان يطير وأنت في كَلّ لحظة تقطع شوطاً من عمرك القصير، فكأنّك سائر مُسرِعٌ إلى المَوت...»[٣٧].

و«الكدْح» في رأينا من أهمّ الدلالات القرآنية على «الحركة» الخلاّقة، فهو مسيرة المؤمن وسِباقه نحو الله، فاطر السماوات والأرض. والمسيرة هي الزمانُ، و«الزمانُ إمّا أن يكون اختراعاً، وإمّا أن يكون لاشيئاً» كما يقول هنري برغسون[٣٨]. أمّا «السكينة»، وهي التي وردت في الآية الكريمة ﴿**هُو الذي أنزَل السَّكينةَ في قُلوب المؤمنينَ ليَزدادُوا إيماناً معَ إيمانِهم**﴾[٣٩]، فهي الجزاء الدُّنيوي الذي يحصل عليه كل مُؤمن «كادح» قبل نَيله الجزاء الأخروي؛ فهذا المؤمن ـ على الرغم من توفّر الإيمان لديه، إنما هو ، بفضل «السكينة» تتولّد لديه «زيادة» في الإيمان.

---

(٣٥) للمزيد من الاطّلاع على موقفنا من علاقة الفكر بالفقه، انظر: الحمّار، **الاجتهاد الثالث (الاندماجي): رحلة المسلم المريض من الإسلام إلى الإسلام**، ص ٨١، جزء «الفكر قبل الفقه وتحيين الوجود أَولى من تعصير الموجود».

(٣٦) **القرآن الكريم**، «سورة الانشقاق،» الآية ٦.

(٣٧) محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير: تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول مستمد من أوثق كتب التفسير**، ٣ ج، ط ٤ (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١)، ج ٣، ص ٥٣٧.

(٣٨) بخصوص الجُملة التي أثرت كثيراً في إيليا بريغوجين، انظر: آتيان كلاين، «زمن الفيزياء،» <http://nicol.club.fr/ciret/bulletin/b12/b12c5.htm>.

(٣٩) **القرآن الكريم**، «سورة الفتح،» الآية ٤.

يتعلّق الأمر إجمالاً بالإبحار، لا فقط في ما ظَهر من الإسلام (الشعائر والأحكام الشرعية)، وإنّما أيضاً في أعماق «المُعاملات» و«الأخلاق». يتعلّق الأمر بانتهاج المُسلم الممارس والمسلم غير الممارس على حدّ سواء، لمُقاربة مماثلة تقريباً لمُقاربة الطالب/المُتكلِّم مع اللّغة، مُولِيان الأهمية القُصوى للخَلق والابتكار والإبداع، باستقراء قواعد التطبيق الصحيح للّغة/ الدين من داخل النظام الأشمَل: نظام ممارسة، التكلّم/ممارسة الدين. فهذا التمشّي من شأنه أن يفتح أمام المسلم فُرصَ الإبحار في مساحات النّص، قرآناً وحديثاً، وهي مساحات على الرغم من سَعة قابليتها للإبداع والتدبّر، تخضع عن طواعية لأضواء كاشفة تُسَلّطها عليها، بمنتهى الدقّة والرقابة، مَنارة الشريعة السمحاء.

كما يتعلّق إجمالاً باتباع منهجية في التعامل مع النص القرآني والسنة الشريفة، تشتَمل على مواصفات «الفوضى البنّاءة» مثلما قَدّمناها آنفاً، وبأن تتمَخّضَ عملية التعامل تلك على نظامٍ مُتَحرّر وتحرُّريّ. وذلك لن يُنجَز إلّا باستخراج ما يلزم من عناصر، من **القرآن الكريم** ومن الحديث الشريف، ثم ضمّها في قالبٍ أو نسق أو نظام أو كيان أو بنيانٍ أو هيكل يقوم مقام وعاءٍ لفكرة أو لثقافة أو لاستراتيجية أو لِدرْسٍ أو لبرنامج. ومن مزايا القالب والفكرة التي يحتوي عليها أن تساعد المسلم «المُتعلّم» على تفعيل كفاءاته الكامنة بِهَدَف فَهْم الإسلام من خلال التجربة الوجودية مع «نظيره في الخلق» ومع «أخيه في الدين» (كما قال عليٌّ (رضي الله عنه) في تعريفه للإنسان)، وكذلك من خلال التجربة الميدانية في الطبيعة وفي البيئة. حينئذٍ، يُمكن القول إنّ الغاية النهائية من توظيف الوعاء بواسطة ملئِه بالخيرات، وتباعاً الغاية النهائية من توظيف تلك الخيرات، أن يتَمَكّن «المتعلّم» من التحرّر المُنَظَّم، ونعني بذلك التفاعلَ الآني مع الواقع، من منظور **القرآن الكريم** والسُّنّة، بالتّأكيد، ولكن بآليات الجدَل والشكّ المُوصلة إلى اليقين والاستقراء والاستشراف، وبغيرها من مهارات التدبّر المتعددة، التي من شأنها أن تُساعد المسلمين على الارتقاء بأحوالهم من ظُلمة الاتّباع والتبعيّة، إلى نُور الإبداع والاكتفاء؛ كلّ ذلك بواسطة منهجية مُستخرَجة من أعظم نظام عرفته الإنسانية: نظام الإسلام؛ ومُطبَّقة على أضخم مسرحٍ عرَفتْه الإنسانية: مسرح الحياة.

التدين هو فن العيش بإبداع وابتكار، ولو تحتّم أن يقعَ إنجاز ذلك في ظل نظام تسنّه قوانين.

ـ ٦ ـ

أخيراً، يُمكن تصوّر الاستعمالات المستقبلية للنسق/الوعاء كما يلي:

ـ استنساخ الأنموذج المستخرج من **القرآن الكريم** في التربية العامة والدينية، واستقراء أنظمة ومقاربات مولّدة منه، تُعنى بتطوير استيعاب اللغات عموماً، واللغة العربية خصوصاً، لا سيما أنّ من النتائج الطبيعية لهذا التمشّي تأصيل اللغة في الثقافة من أساسها، ما دام المدلول (الديني بالخصوص والثقافي بصفة أعمّ) سيتحرّر من العراقيل السُّوسيو ـ ألسُنية والسَّيكو ـ ألسُنية، التي كانت تعرِضُه حصريّاً في وضع صراع متواصل مع «الدّال»، حارمة

«الكلمة» و«الكلام» من إثراء «اللغة» عبر الارتقاء إلى مستوى الحداثة، أو لنقُل إلى مستوى العَصر.

ـ استنساخ الأنموذج في الثقافة وفي الفكر لتوليد مقاربات ومنهجيات وتصاميم ونظريات في الفلسفة ثمّ في السياسة وفي استراتيجيات التقدّم [٤٠].

ـ حفز العلماء والباحثين من الاختصاصات العلمية المختلفة والمتعددة، الصحيحة منها والطبيعية والاجتماعية والإنسانية، النظرية منها والتجريبية الميدانية، على الانكباب على إنجاز عملية التوليد والتحويل الأولي، أي تدبّر **القرآن الكريم** من منظور اختصاصهم، ثمّ استخراج قالب أو نسق أو نظام أو كيان أو بنيان أو هيكل ليكون، بحُكم حُسن تصميمه، أنموذجاً من **القرآن الكريم**، يمكن سَحبُه في مرحلة التوليد والتحويل الثانية، على مجال من مجالات اهتمامهم ذي طبيعة ملائمة للأنموذج المتولّد.

هكذا رُبّما يكون المفكّر العربي والمسلم قد أَعلن طلاقهُ دون رجعة، من مُحاولاته اليائسة لتِكرار مسيرة أثبت العلمُ الحديث، على عكس ما كان مُتعارفاً، استحالة تكرارها[٤١]: مسيرة الزمن، ما حتّم عليه رُبّما، أن يُحاول من هنا فصاعِداً تَكرير الشريعة السمحاء مثلما يُكرّر المُهندس الذهب الأسود □

(٤٠) وقَد بادرْنا بالقيام بالتجربة لمّا أنجزنا كتاباً في نسخة إلكترونية في هذا السياق، انظر: الحمّار، **الاجتهاد الثالث (الاندماجي): رحلة المسلم المريض من الإسلام إلى الإسلام**، وقد أردناه أن يكون استنساخاً للفكرة الألسنية/الدينية التي نحن بصدد تصريفها، استنساخاً في المجال الأنثروبولوجي والفينومينولوجي. وقد نُشر الكتاب بواسطة: . <http://www.arabicebook.com/Items/item-display-preview.aspx?IID=2005>

(٤١) يقول إيليا بريغوجين استناداً إلى اكتشافات فيزياء الديناميكا الحرارية: «لا يقدر المرء على قَلب نموّ الكَون» إذ الزمن عند الفيزيائيين الجدد وعنده صار يُعرف بأنّه «لاعكسي» (أي Universal بالإنكليزية). قال ذلك في حديث نشر في شهر أيار/مايو سنة ١٩٨٣ تحت عنوان «بيغوجين: «ساحر الزمن»» أجراه معه روبرت ب. توكر، <http://www.omni.generalmedia.com>.